هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان – العدد ٤٥ ، جمادى الأولى ١٤١٢هـ / نوفمبر ١٩٩١م

الافتتاحية

في اللهب ولا نحترق !

إن الأمم والشعوب كالأفراد ، يقلد بعضها بعضاً ، ويتأثر ويؤثر بعضها في بعض ، وهذا أمر طبيعي وسر من أسرار الصراع الذي تقوم عليه الحضارات . وهذا التأثر والتأثير: بعضه ما تسعى إليه الجهة الغالبة ، على غير رغبة من المغلوبة ، وبعضه ما تسعى إليه الجهة المغلوبة على غير رغبة من الغالبة.. ونحن - المسلمين - لا نشذ عن هذه القاعدة فقد أثّرنا وتأثرنا ، واقترضنا وأقرضنا ، سواء عن رضا ووعي ، أم عن كره وإذعان . غير أن كفة الاقتراض والاستدانة قد بدأت ترجح يوماً بعد يوم ، حتى وصلنا إلى مرحلة الإفلاس والاعتماد على الاستدانة في جميع المجالات
تقريباً .

ومنذ أن دَهَمنا الغرب دَهْمَتُه الثانية بحضارته الوثنية المسيحية، قبل حوالي قرنين تقريباً، ونحن نتخبط كالعميان في ظلمة مطبقة ، نحاول المخرج من هذا المصير الذي صرنا إليه، وكلما ظننا - أو ظن بعضنا - أننا كدنا ننجو ، جَبَهَنا جدار جهم قاسٍ ، فأصابنا دوار يشل الحركة زمناً ، ثم ننهض نتلمّس المخارج من جديد . ولا ننفك - ونحن في هذه الحالة البائسة - عن التلاوم وتبادل التهم التي تؤدي كثيراً إلى أن يأخذ بعضنا برقاب بعض ، وتشحن القلوب ، وتنتفخ الأوداج ، فمن ملق سبب ارتطام رأسه بالجدار على زيد الذي لم يحذره ، وآخر على عبيد الذي قاده إلى ذلك ، وثالث على الجدار نفسه أنْ كان صلباً قاسياً ، ولم يكن لينا كالعجين يجد الناطح في نطحه متعة ! وننسى أننا عميان ، أو كالعميان ، وغفلنا عن السبب الأساسي لما نعانيه ، وهو فقدان الحاسة التي بها نرى ونبصر .

نقف اليوم على عتبة مرحلة يبدو أنها جديدة و"منعطف تاريخي حاسم" بلغة مفكرينا الذين يكتبون ويخطبون (١) . وكاتب هذه السطور ما زال - منذ نعومة أظفاره - يسمع ويقرأ عن "المنعطفات التاريخية الحاسمة" في تاريخنا الحديث ، وبينما كانت هذه المصطلحات تعجبه بطنينها ورنينها وهو صغير ؛ دون أن يفهم مدلولاتها ومراميها ، إذا به يكتشف بعد برهة - وقد زالت الأغشية عن بصيرته - أن هذه الكلمات استنفدت أغراضها ، وجفت عصارتها ، وأن مكانها المناسب هو "سلة المهجور من الكلام" الذي تتجوزه الفِطَرُ البشرية لأنه لم يعد يعبر عما في نفوسها ، ولم يعد مرآة صقيلة ناصعة تنعكس عليها نفس متحدثيها واضحة محددة صحيحة .

وإذا استعملت هذه الكلمات ، مع هذا الموقف منها ؛ فلأنني متأثر بما حولي ، ومنفق من "عملة" زمني ، وهدفي أن أصل بالقارئ إلى هذه المرحلة التي نحن وأجيالنا الآتية مقبلون عليها .

لقد وصلنا إلى هنا ، حيث فقد الناس الثقة بكل ما نصب من الأصنام خلال تاريخ العرب الحديث . أخرجوا المستعمرين من الأبواب فجاؤوهم من النوافذ ، آمن بعضهم بالشيوعية والاشتراكية فماتت وبالت عليها الثعالب ، وضعوا ثقتهم في ما سمي بالثورات فاحرقت هذه الثورات الأخضر واليابس وأهلكت الحرث والنسل واستأصلت الزرع، وجففت الضرع.

وقد تميزت هذه الفترة بأمرين متزامنين تقريباً ، يحسن الوقوف عندهما لاستشراف نتائجهما وهما :